الفصل الثاني

أثر حج ملوك غرب إفريقيا في ازدهار الثقافة الإسلاميةواللغة العربية في أفريقيا الغربية من القرن الرابع الهجري حتى مطلع القرن الحادي عشر

يضم هذا الفصل العناصر التالية:

١ ـ الحج والبيت الحرام والمقصد الأول من تشريع العبادات.

٢ ـ الحج من أوضح العبادات أثراً في حياة المسلمين أفراداً وشعوباً.

٣ ـ الحج: تدريب عملي للمسلم على المبادىء الإنسانية العليا التي جاء بها الإسلام.

٤ ـ في الحج نرى معنى الوحدة جلياً.

٥ ـ الحج: يتيح للمسلم أن يشهد أعظم مؤتمر سنوي.

٦ ـ أثر الحج في نفوس حجاج السودان الغربي ملوكاً وعلماء ورعايا.

٧ ـ حج ملوك السودان الغربي من أكبر العوامل التي ساهمت في انتشار اللغة العربية والثقافة الإسلامية في غربي أفريقيا.

٨ ـ أشهر ملوك غرب إفريقيا الذين كان لحجهم أثر بارز في ازدهار الحركة العلمية والثقافة الإسلامية واللغة العربية في غربي أفريقيا.

٩ ـ أول من حج من ملوك السودان الغربي:

جورماندانا كوناتي والمسمى في المراجع العربية «برمندان أو برمندانة» ملك مالي سنة **٤٤٢** هـ.

١٠ ـ حج السلطان منسى ولي بن ماري جاظة.

١١ ـ حج السلطان: منسى موسى سنة **٧٢٤** هـ وأثر حجه في ازدهار الحركة العلمية والثقافية في غرب أفريقيا.

١٢ ـ الطرق التي سلكها السلطان منسى موسى إلى الحج.

١٣ ـ استقبال الناصر محمد بن قلاوون صاحب مصر لمنسى موسى أثناء مروره بمصر.

١٤ ـ الأثر الذي تركه الذهب الذي أنفقه السلطان منسى موسى في مصر والحرمين.

١٥ ـ تدين السلطان منسى موسى وصفته أثناء إقامته بمصر كما وصفه المصريون.

١٦ ـ أثر حج منسى موسى في ازدهار الحركة العلمية في السودان الغربي (غرب أفريقيا).

١٧ ـ حج منسى سليمان بن أبي بكر شقيق منسى موسى سنة ٧٥٢ هـ/ ١٣٥١م وأثر حجه في ازدهار الحركة العلمية في غرب إفريقيا.

١٨ ـ أول من حج من ملوك امبراطورية سنغاي الإسلامية التي خلفت مالي من حكم السودان الغربي.

١٩ ـ حج أسكيا محمد بن أبي بكر ملك سنغاي وما أحدثه حجه في السودان الغربي والمشرق الإسلامي.

٢٠ ـ ما أنفقه من الذهب في الحرمين، وشراؤه العقارات والأراضي في مكة والمدينة وجعلها وقفاً على السودانيين.

٢٠ ـ المقارنة بين ما أنفقه منسى موسى وما أنفقه أسكيا محمد في الحج في الحرمين وأثره في تغيير الأحوال.

٢١ ـ فوائد حج أسكيا محمد وآثاره الديني والثقافي والسياسي والتنظيمي في غرب إفريقيا.

٢٢ ـ آثاره في مجال الدعوة والإصلاح ونشر الإسلام والجهاد في سبيل الله وتحقيق العدالة بين الناس.

٢٣ ـ نهاية حكم الحاج أسكيا محمد بن أبي بكر وأثر ذلك على الأمبراطورية الإسلامية الواسعة التي تركها.

الفصل الثاني

أثر حج ملوك أفريقيا الغربية في ازدهار الثقافة الإسلاميةواللغة العربية في غرب أفريقيا

الحج هو الركن الخامس من أركان الإسلام وهو آخر ما فرض من الشعائر والعبادات التي رسم الله حدودها ومعالمها.

والحج هو تلك الرحلة الفريدة في عالم الأسفار والرحلات، ينتقل المسلم فيها ببدنه وقلبه إلى البلد الأمين الذي أقسم الله به في كتابه. للوقوف بعرفات، والطواف ببيت الله الحرام، الذي جعله الله رمزاً لتوحيده ووحدة المؤمنين به.

وهذا البيت هو أول بيت أقيم في الأرض لعبادة الله وحده سبحانه وتعالى، وبانيه هو الخليل إبراهيم وولده إسماعيل عليهما الصلاة والسلام. وقد جعل الله من ذريتهما هذه الأمة المسلمة، واستجاب دعوتهما الخالصة وهما يقيمان قواعد البيت ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم. ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم. ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم﴾[1].

والمقصد الأول من تشريع العبادات هو الامتثال لله سبحانه

---

(١) سورة البقرة: الآية١٢٧ ـ ١٢٩.

وتعالى والوفاء بحقه، ومع ذلك فإن وراء العبادات آثاراً طيبة ومنافع جمة في حياة الفرد والجماعة.

والحج من العبادات المشتملة على الأمور التعبدية التي لا تعرف حكمتها معرفة تفصيلية على وجه التأكيد، إلا أنه من أوضح العبادات أثراً في حياة المسلمين أفراداً وشعوباً، وأثره عظيم في حياة المسلمين روحياً وعاطفياً وثقافياً واقتصادياً واجتماعياً، وكيف لا وقد قال الله تعالى: ﴿وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق، ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله...﴾[1].

وشعائر الحج وما لهم من أثر في النفس وقوة الجماعة، وما لها من إيحاء في الفكر والسلوك كل ذلك يترك أثره واضحاً في أعماق المسلم. فيعود من رحلته أصفى قلباً وأطهر مسلكاً وأقوى عزيمة على الخير وكلما كان حجه مبروراً خالصاً لله كان أثره في حياته المستقبلية أعمق أثراً.

والحج ثقافة وتدريب، فيه توسيع لأفق المسلم الثقافي ووصل له بالعالم من حوله.

كما أن فيه تدريباً عملياً للمسلم على ركوب المشقات ومفارقة الأهل والوطن والتضحية بالراحة والدعة في الحياة الرتيبة بين الأهل والأصحاب.

وحياة الحاج تنقل وارتحال، واعتماد على النفس، وبعد عن الترف والتكلف والتعقيد.

الحج: تدريب عملي للمسلم على المبادىء الإنسانية العليا التي جاء بها الإسلام فقد أراد الله لهذا الدين ألا تكون مبادئه وقيمه

---

(١) سورة الحج: الآية ٢٧ ـ ٢٨.

الاجتماعية مجرد شعارات أو نداءات، بل ربطها بعباداته، وشعائره ربطاً وثيقاً حتى تخط مجراها في عقل المسلم وقلبه فهماً وشعوراً، وفي حياته سلوكاً وتطبيقاً. وفي الحج نرى معنى المساواة في أجلى صورة وأتمها، فجميع الحجاج قد أطرحوا الملابس والأزياء المزخرفة التي تختلف باختلاف الأقطار، واختلاف الطبقات، والقدرات، واختلاف الأذواق، ولبسوا جميعاً لباساً واحداً بسيطاً أشبه ما يكون بأكفان الموتى.

وفي الحج أيضاً نرى معنى الوحدة جلياً: وحدة في المشاعر، ووحدة في الشعائر، ووحدة في الهدف، ووحدة في العمل، ووحدة في القول. لا إقليمية، ولا عنصرية، ولا عصبية للون أو جنس أو طبقة، إنما هم جميعاً مسلمون رب واحد، ويطوفون ببيت واحد، ويقرأون كتاباً واحداً بلغة واحدة، ويتبعون رسولاً واحداً.

والحج يتيح للمسلم أن يشهد أعظم مؤتمر سنوي، مؤتمر لم يدع إليه ملك أو رئيس أو حكومة أو هيئة. بل دعا إليه الله العلي الكبير الذي فرض إقامته في كل عام على المسلمين.

فهناك يجد المسلم إخواناً له من قارات الدنيا، اختلفت أقاليمهم، واختلفت ألوانهم، واختلفت لغاتهم، جمعتهم رابطة الإيمان والإسلام.

إن هذا المؤتمر له أكثر من معنى، إنه يحيى في المسلم الأمل ويطرد عنه عوامل اليأس، ويشحذ العزم ويسمو به. وفي هذا المؤتمر يلتقي رجال العلم، ورجال الثقافة، ورجال الأدب، ورجال الدعوة والإصلاح، ورجال السياسة، فما أجدرهم ـ وقد التقوا على هدف واحد ـ أن يتعارفوا ويتفاهموا ويتعاونوا ويتدارسوا العلم ويلتقي رجال السياسة بالعلماء وطلبة العلم.

أثر الحج في نفوس حجاج غرب أفريقيا

وقد أثر الحج تأثيراً كبيراً في نفوس حجاج غربي أفريقيا ملوكاً وعلماءً فظهر أثره في سلوكهم وفي حياتهم العملية والعلمية والثقافية والسياسية.

وأدى حجهم دوراً كبيراً في توطيد العلاقات الثقافية والسياسية بين الممالك الإسلامية في السودان الغربي من جهة ودول المشرق الإسلامي من جهة أخرى، وغالباً ما تترك قوافل الحجاج بصماتها الثقافية والاجتماعية على البلاد التي تمر بها كمصر، وطرابلس والحرمين الشريفين.

وقد أتاحت رحلات الحج الفرص لحكام وسكان بلاد السودان الغربي التعرف على أوجه النشاطات العلمية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية في تلك البلاد التي يمرون بها ونتج عن ذلك إقامة علاقات ثقافية وطيدة بين مصر وبلاد السودان الغربي (إفريقيا الغربية) حيث قام بعض ملوك السودان أثناء ذهابه وإيابه من الحج بتأسيس مدرسة عريقة كانت تعرف بمدرسة ابن رشيق تقوم بمهام تعليم الطلاب الوافدين إلى مصر من بلاد السودان الغربي، ويقول المقريزي أثناء سرده المعلومات عن هذه المدرسة التي تم تأسيسها منذ القرن السابع الهجري الموافق الثالث عشر الميلادي يقول: إن المدرسة تخصصت في تدريس الفقه على المذهب المالكي الذي كان سائداً ـ ولا يزال ـ في السودان الغربي. وكان ملوك السودان الذين جاءوا إلى القاهرة في طريقهم إلى الحج قد أعطوا القاضي علم الدين ابن رشيق مبلغاً من المال ليقوم ببناء المدرسة، ثم جلس يعلم فيها فأطلق عليها اسمه.

وتذكر بعض الروايات السودانية أن المدرسة كسبت شهرة عظيمة في بلاد السودان وتوافد إليها طلاب العلم من جميع أنحاء إفريقيا الغربية، واستمرت المدرسة في تلقي الإعانات من أهالي وأمراء تلك البلاد.

وقد ربط ملوك السودان الغربي ـ أفريقيا الغربية ـ أنفسهم بالبلاد الإسلامية الأخرى، وكانت مواسم الحج ـ بحق ـ تشبه بعثات علمية لهؤلاء الملوك ومن حولهم، فمن خلال رحلاتهم إلى الحج يطلعون على الجديد من أساليب الحكم والحياة العلمية ثم يعودون فيطبقونها بحب وبحماسة.

حج ملوك السودان الغربي من أكبر العوامل التي ساهمت في انتشار اللغة العربية والثقافة الإسلامية في غربي أفريقيا:

كان الحج وما زال من أهم العوامل التي تيسر للمسلمين فرصة الالتقاء والتبادل الفكري والثقافي. وقد حرص سلاطين الدول الإسلامية في غرب أفريقيا وشعوبها على أداء هذه الفريضة رغم ما كانوا يتكبدونه من مشاق لطول الطريق ووعورته. وكانت هناك طرق معروفة في تلك الأزمنة تطرقها قوافل الحجاج:

١ ـ منها طريق صوب الشمال ـ عبر الصحراء الكبرى إلى ساحل البحر المتوسط، ثم الاتجاه شرقاً تجاه مصر عبر البحر الأحمر إلى الحجاز.

وبعض القبائل ـ وبخاصة قبائل هوسا ـ كانت تفضل طريق غاو ـ تمبكو ـ غات ـ غدامس ـ طرابلس، لأنه كان آمناً، كما كان يتيح لهم الفرصة للتجارة في أثناء الطريق. على أن الموكب الصحراوي لشعوب غرب أفريقيا الذي كان يفضل الطريق الشمالي للحج ـ عادة يذهب بمعية الوفد المغربي عبر الشمال الإفريقي وليبيا ومصر، وكانت هذه فرصة نادرة للاندماج والتعارف.

٢ ـ منها طريق صوب الشرق ـ إلى سودان وادي النيل، ثم ساحل البحر الأحمر فالحجاز، وهذا الطريق فيه عثرات لم يكن مأموناً، فقد كان المسافر فيه يتعرض للنهب بالإضافة إلى الحروب الداخلية والاضطرابات، إلا أنه بعد ظهور الاستعمار الغربي في أفريقيا أصبح الطريق الوحيد لحجاج غرب أفريقيا ووسطها.

أشهر ملوك غرب أفريقيا الذين كان لحجهم أثر بارز في ازدهار الحركة العلمية والثقافة الإسلامية واللغة العربية في غرب أفريقيا:

أول من حج من ملوك مالي:

جورماندانا كوناتي، والمسمى في المراجع العربية «برمندان، أو برمندانة» وكان حجه سنة ٤٤٢ هـ/ ١٠٥٠م فاقتفى أثره في الحج من أتى بعده من ملوك مالي وسنغاي.

لم تذكر المصادر التي اطلعت عليها أثراً كبيراً لحج هذا الملك إلا أن أثره الكبير ظهر في اقتفاء سنته في الحج من أتى بعده من ملوك السودان. ولم يكن الملك يحج وحده، بل كان يصحب معه حاشيته وكبار رجال دولته وأعيان علماء مملكته، فضلاً عن خدمه وحشمه وحراسه[١]. ولم يكن الحج عند هؤلاء الملوك مجرد مناسك يؤدونها بل كان يتلقون فيها ألواناً من التعليم والثقافة الإسلامية ويصححون عقيدتهم وفهمهم للإسلام[٢].

حج السلطان منسى[٣] ولي بن ماري جاظة:

وهذا الملك من أعظم ملوك مالي. وقد حج أيام الملك الظاهر بيبرس صاحب مصر. وكان الظاهر بيبرس قد تلقى في القاهرة رسالة تقول: إن موكب منسا ولي إلى الحج سيصل إلى القاهرة في موسم الحج، وقد احتشدت القاهرة لرؤية الموكب الذي لم يكن لها عهد به من قبل هؤلاء الملوك الإفريقيين الذين كانوا يأخذون طريقهم في جلال عميق إلى حج بيت الله الحرام.

---

(١) انظر تاريخ السودان ص ٧ وما بعدها.

(٢) انظر مسالك الأبصار في ممالك لابن فضل الله العمري المتوفى سنة ٧٤٩هـ من الجزء الخاص ببلاد مالي الباب العاشر. وانظر أيضاً صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٩٦ للقلقشندي.

(٣) معنى (منسى) بلغتهم السلطان أو الملك. ومعنى (ولي) علي. انظر صبح الأعشى للقلقشندي ج ٥ ص ٢٩٣.

وقد رحب الظاهر بيبرس بسلطان مالي منسى ولي أجمل ترحيب واستقبله بما يليق به، وأنزله في قصره معززاً مكرماً[1].

وأما موكب الحج الذي أحدث دوياً في المشرق الإسلامي وأوروبا، من مواكب حج ملوك مالي. وأطنب المؤرخون في ذكره والإشادة به فهو الموكب الذي كان يقوده السلطان منسى موسى الذي مر بالقاهرة في عهد السلطان: الناصر محمد بن قلاوون صاحب مصر[2] كما سيأتي.

حج السلطان منسى موسى سنة ٧٢٤ هـ وأثر حجه في ازدهار الحركة العلمية والثقافية في غرب أفريقيا:

من أشهر مشاهد ركب الحجاج السودانيين من غرب أفريقيا التي سجلها التاريخ وفد الحجاج الذي كان على رأسه السلطان منسى موسى سلطان مالي، وقد أطنب المؤرخون في ذكر موكب حجه الذي كان في سنة **٧٢٤** هـ وهي السنة السابعة عشرة من حكمه وقد صحبه في حجه ذلك جحافل من أتباعه من أهل وانجارا وولاتا، وتوات وغيرهم من أهل مملكته من العلماء والأعيان، فانتشرت شهرة مالي إلى أوروبا والشرق الأدنى، وذلك بسبب قيامه بالحج إلى مكة والعظمة التي

---

(١) انظر صبح الأعشى للقلقشندي ج ٥ ص ٢٩٣ والذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك للمقريزي ص ١١٠.
ومع حركة الإسلام في أفريقيا ـ دراسة من خلال الدول التي قامت قبل الاستعمار ص ١٥٨.

(٢) كان حج ملوك السودان الغربي يتم مروراً بشمال أفريقيا فالقاهرة ففلسطين لزيارة البيت المقدس. وكان من ملوك مالي الذين حجوا الملك ساكبورة الذي حج ورجع فقتل في إثر عودته، وصف بأنه كان من أعظم ملوك مالي، قوي سلطانه وهابه أمم السودان وفتح بلاداً كثيراً وضمها إلى مملكته. الذهب المسبوك ص ١١١ وصبح الأعشى ج ٥ ص ٢٩٤ وقال إن حجه كان في أيام الملك الناصر «محمد بن قلاوون».

لازمته في رحلته إذا ارتفع اسم هذا السلطان إلى الذروة في القاهرة والمدن الأخرى التي شهدت مرور قافلته الفخمة، حتى أصبح اسمه شهيراً في جزء كبير من العالم المتمدين في ذلك الوقت[١].

الطرق التي سلكها السلطان: منسى موسى إلى الحج:

إن الصورة التي رسمها المؤرخون المسلمون لقافلة حج منسى موسى ملك مالي تعتبر في حّد ذاتها وثيقة شرف لدولة مالي في عهد هذا الملك العظيم العادل. وعند تحرك موكبه للحج اتجه صوب الشمال عبر ولاته وتوات. وأخذ معه ستين ألف رجل، وخمسمائة عبد يمسك كل واحد منهم بقضيب من الذهب الخالص[٢]. وقيست قافلته بالأميال، وصحب معه أربعين بغلة محملة بالذهب، وأما زوجته (إيناري فكانت مرفقة بخمسمائة وصيفة ووجه السلطان منسى موسى رسالة إلى السلطان المريني أبي سعيد عثمان بن يعقوب يخبره فيها بأن قافلته ستمر من الطريق الأمبراطوري المحاذي لساحل البحر الأبيض المتوسط[٣] ثم تتبع شاطىء سرتس الذي كان يمد تجار أجزاء كثيرة

---

(١) اظر الاستقصاء في دول المغرب الأقصى للناصري ص ١٠١. وتاريخ السودان ص ٦ ـ ٧ وتاريخ الفتاش لمحمود كعت ص ٣٣ ورحلة ابن بطوطة ص ٦٩٢، ومسالك الأبصار في ممالك الأمصار لابن فضل الله العمري ص ٥٩ وما بعدها من الباب العاشر الخاص بمملكة مالي، وصبح الأعشى ج ٥ ص ٢٩٦ وما بعدها.

(٢) انظر تاريخ السودان ص ٦ و ٧ وتاريخ الفتاش للقاضي محمود كعت ص ٣٣.

(٣) المصادر السابقة وابن خلدون ـ كتاب العبر مجلد ٧ ص ٢٣٦، والغربي ص ٤٨. وكان بين دولة مالي والدولة المرينية في المغرب علاقة ود وحسن جوار وكان بين منسى موسى سلطان مالي وأبي الحسن وأبي سعيد من سلاطين الدولة المرينية علاقة وثيقة من المهاداة والمواصلة كما أن سلطان ماري جاظة سلطان مالي الي كان قبل منس موسى بينه وبين الدولة المرينية علاقة وثيقة فقد هادى السلطان أبا سالم المريني وأغدق عليه بالزرافة. انظر دول المغرب الأقصى للناصري ص ١٠١. وكما كان بين دولة الموحدين في المغرب ودولة مالي علاقات تجارية وثيقة. انظر النبوغ المغرب في الأدب العربي ج ٢ ص ١٦. والغربي ص ٤٤.

من أوروبا بتجارة أفريقيا ـ فكان ذلك فرصة ليشهدوا العظمة التي لازمته، حيث كان يمتطي جواداً يتقدمة خمسمائة رقيق كل منهم يحمل كتلة من الذهب تزن خمسمائة مثقال. وكان يمشي محروساً بخمسة رجال يحملون أسلحة من الذهب الخالص[١]. فأصدر السلطان المغربي أوامره بحراسة موكب السلطان المالي أثناء اجتيازه الصحراء. ولبست المملكة المغربية حلة الزينة لاستقبال ضيف المغرب. الذي أحاطت به مظاهر الأبهة والبذخ وحمل السلطان منسى موسى معه أحمالاً من الهدايا قدمت إلى الحضرة (بفاس) تركت آثارها في نفوس المغاربة الذين كانوا ينظرون إلى القادمين نظرة احترام وتقدير. وعندما انطلق الموكب من (فاس) إلى تلمسان صحبته كوكبة من الخيالة المغاربة الذين كانوا يحملون أوامر بمضاعفة مظاهر الحفاوة عند مرور قافلته (ببجاية وتخوم تونس). وحل الموكب بمصر حيث وجد السلطان منسى موسى عاهل الجركس صاحب مصر يفاتحه في موضوع إقامة صلات تجارية وسياسية بين البلدين يجب إخفاء أمرها عن المغرب الصديق الأول لمالي، ولكن الحديث بين الملكين بلغ (فاس). فأكد منسى موسى بعد عودته لملك المغرب بأن الحلف الذي سبق عقده بين المملكتين لن يتأثر بذلك[٢].

وذكر ابن فضل الله العمري في مسالك الأبصار والقلقشندي في صبح الأعشى أن السلطان منسى موسى نزل أرض مصر في عدد وفير من أهالي مالي يقدرون بالآلاف في موكب عظيم مهيب[٣].

---

(١) المصادر السابقة والممالك الإسلامية في غرب أفريقيا ص ١١٦ ـ ١١٧.

(٢) العمري: مسالك الأبصار ص ٩٤٣ وما بعدها والمصادر السابقة أيضاً. وابن الوردي: ذيل المختصر في أخبار البشر ج ٢ ص ٢٧٥.

(٣) العمري ص ٧٠ ـ ٧١ ـ ٧٢ والقلقشندي ج ٥ ص ٢٩٥. المقريزي ص ١١٢ ـ ١١٣.

استقبال الناصر محمد بن قلاوون لمنسى موسى:

ذكر صاحب مسالك الأبصار أن الأمير أبا العباس أحمد بن الجاكي (المهمندار)[1] قال: (لما خرجت لملتقاه، أعني من جهة السلطان الأعظم (الكلام للمهمندار) الملك الناصر، أكرمني إكراماً بليغاً، وعاملني بأجمل الأداب ولكنه كان لا يحدثني إلا بترجمان، مع إجادة معرفته للتكلم باللسان العربي. ثم إنه قدم للخزانة السلطانية حُملاً كثيرة من الذهب المعدني الذي لم يصنع وغير ذلك. وحاولته أن يطلع إلى القلعة ويجتمع بالسلطان فأبى علي وامتنع وقال: أنا جئت لأحج لا لشيء آخر وما أريد أخلط حجي بغيره، وشرع في الاحتجاج بهذا، وأنا أفهم أنه يرى الحضور نقصاً عليه، لما يضطره إليه من تقبيل الأرض أو اليد، وبقيت أحاوله وهو يتعلل ويعتذر والمراسم السطانية تتقاضاني في إحضاره، فما زلت به حتى وافق، فلما حضر إلى حضرة السلطان قلت له قبل الأرض فتوقف وأبا إباءً ظاهراً، وقال: كيف يجوز هذا[2].

وقال الترجمان: «أنا مالكي المذهب، ولا أسجد لغير الله»، فأعفاه السلطان من ذلك، وقربه وأكرمه، وسأله عن سبب مجيئه، فقال: «أردت الحج» فرسم للوزير أن يجهزه بكل ما يحتاج إليه[3].

أثر الذهب الذي أنفقه السلطان منسى موسى في مصر والحرمين:

ذكر ابن فضل الله العمري والقلقشندي وابن كثير في البداية والنهاية وكذلك السعدي في تاريخ السودان أن منسى موسى وأصحابه

---

(١) المهمندار كلمة فارسية معناها ضيف دار. ومهمته تلقي الرسل والوفود الواردين إلى السلطان وإنزالهم بدور الضيافة.

(٢) انظر مسالك الأبصار ص ٧١ ـ ٧٢ ـ ٧٣ من الجزء الخاص بأفريقيا. والقلقشندي ج ٥ ص ٢٩٥ وما بعدهالا والذهب المسبوك ص ١١٢.

(٣) الذهب المسبوك مع المصادر السابقة وتاريخ السودان للسعدي ص ٧ ـ ٨.

أنفقوا في كل من مصر والحرمين من الذهب ما جعل سعر الذهب ينزل بمقدار درهمين في كل مثقال[1].

وإليك ما ذكره العمري في مسالك الأبصار:

قال: قال المهمندار: (ولقد أفاض هذا الرجل، بمصر فيض الإحسان، ولم يدع أميراً مقرباً ولا رب وظيفة سلطانية حتى وصله بجميله من الذهب، ولقد كسب أهل مصر عليه وعلى أصحابه في البيع والشراء والأخذ والعطاء مالا يحصى وبذلوا الذهب حتى أهانوا في مصر قدره وأرخصوا سعره. قلت: (والكلام للعمري): ولقد صدق المهمندار فإنه حكى مثل هذا غير واحد، ولما مات المهمندار وجد الديوان فيما خلفه آلافاً من الذهب المعدني مما أعطاه له باقياً على حاله في ترابه لم يصنع.

وحدثني خلق من تجار مصر والقاهرة عما حصل لهم من المكاسب والربح عليهم[2] فإن الرجل منهم كان يشتري القميص أو الثوب أو الإزار وغير ذلك بخمسة دنانير وهو لا يساوي ديناراً واحداً، وكانوا في غاية سلامة الصدور والطمأنينة تجوز عليهم مهما جوز عليهم. ويأخذون كل قول يقال لهم بالقبول والصدق، ثم ساءت ظنونهم بأهل مصر غاية الإساءة لما ظهر لهم من غشهم لهم في كل قول وفي تراجحهم المفرط عليهم في أثمان ما يباع عليهم من الأطعمة والسلع حتى أنهم لو رأوا اليوم أكبر أئمة العلم والدين، وقال لهم إنه

---

(١) في البداية والنهاية: أن سعر الذهب نزل بمقدار درهمين في كل مثقال). وجاء في الذهب المسبوك للمقريزي: (فأقبل أصحابه على شراء الجواري من الترك والحبوش والمغنيات والثياب، فانحط سعر الدينار الذهب ستة دراهم).

(٢) وصل العمري إلى القاهرة بعد زيارة ملك مالي منسى موسى باثنتي عشرة سنة فوجد أن الناس لا يزالون يشيدون بمدحه وكرمه. فصغار الموظفين الذين كثيراً ما يتكالبون على الأغنياء، يذكرون هداياه من الذهب الذي حمله معه، إذ كان ٨٠ ـ ١٠٠ جملاً يحمل كل منها ثلاثة قناطير (٣٠٠) رطلاً.

مصري امتهنوه وأساءوا به الظن لما رأوا من سوء معاملتهم لهم[1].
وحدثني (الكلام للعمري) مهنا بن عبد الباقي العجرمي الدليل، أنه كان في صحبة السلطان موسى لما حج، وأنه أفاض على الحجيج وأهل الحرمين سجال الإحسان، وكان في غاية التجمل وحسن الزي في سفره هو ومن معه وتصدق بمال كثير، قال: ونابني منه نحو مئتي مثقال من الذهب، وأعطى رفاقي حملاً أخرى، وبالغ مهنا في وصف ما رآه منه من الكرم وسعة النفس ورفاهية الحال)[2]. قلت: (القائل العمري): (ولقد كان الذهب مرتفع السعر بمصر إلى أن جاءوا إليها في تلك السنة[3]، كان المثقال لا ينزل عن خمسة وعشرين درهماً، وما زاد عليها، فمن يومئذ نزلت قيمته ورخص سعره واستمر على الرخص إلى الآن[4] لا يتعدى المثقال اثنين وعشرين درهماً وما دونها، هذا من مدة تقارب اثنتي عشرة سنة إلى الآن لكثرة ما جلبوه من الذهب إلى مصر وأنفقوه بها. وقد كان بلغني أول قدومي مصر وإقامتي بها حديث وصول هذا السلطان (موسى) حاجاً، ورأيت أهل مصر لهجين بذكر ما رأوه من سعة إنفاقهم، فسألت الأمير أبا العباس أحمد بن الجاكي المهمندار رحمة الله عليه عنه فذكر ما كان عليه هذا

---

(١) وكانت ملابس النساء الرقيقة والجواري من التركيات والحبوش هي أشد ما أعجبهم، وحدث ولا حرج عن تبذير السودانيين وكرم ملكهم الهائل. فكان أن طرح ذهب كثير في السوق إلى حد أن هبطت قيمته هبوطاً شديداً. ولم يستعد الذهب سعره الأول إلى وقت قدوم العمري إلى القاهرة. ولم يقتصر توزيع منسا موسى لذهبه وثروته على القاهرة بل كان ينثر أينما ذهب وفي الحرمين استفاضت هداياه التي دلت على الكرم.،

(٢) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ص ٧٣.

(٣) سنة ٧٢٤ هـ.

(٤) أي سنة ٧٣٦ هـ إذ كان حج السلطان منسى موسى سنة ٧٢٤ هـ وقدوم العمري إلى مصر كان في سنة ٧٣٦هـ بعد مضي اثنتي عشرة سنة من حج منسى موسى ومروره بمصر أثناء ذهابه إلى الحج وعودته منه.

السلطان من سعة الحال والمروءة والديانة)[1].

ما ذكر عن تدين السلطان منسى موسى ومرافقيه أثناء إقامتهم بمصر:

حكى العمري في مسالك الأبصار عن ابن أمير حاجب أنه قال: (ولقد كان هذا السلطان مدة مقامه بمصر قبل توجهه إلى الحجاز الشريف وبعده على نمط واحد في العبادة والتوجه إلى الله عز وجل كأنه بين يديه لكثرة حضوره، وكان هو ومن معه على مثل هذا مع حسن الزي في الملبس والسكينة والوقار، وكان كريماً جواداً كثير الصدقة والبر.

خرج من بلده بمائة وسق حمل من الذهب، أنفقها في حجته على القبائل بطريقه من بلاده إلى مصر ثم بمصر ثم من مصر إلى الحجاز الشريف في التوجه والعود حتى احتاج إلى القرض فاستدان على ذمته من التجار بمكاسب كثيرة وافرة جعلها لهم بحيث جعل لهم في ثلاثمائة دينار سبعمائة دينار ربحاً، ثم بعثها إليهم بالراجح. قال ابن أمير حاجب: (وبعث لي خمسمائة مثقال ذهباً على سبيل الإنتقاد). قال ابن أمير حاجب: (ورأيت هذا السلطان (موسى) محباً للخير وأهله، وترك مملكته واستناب بها ولده محمداً، وهاجر إلى الله ورسوله فأدى فريضة الحج فزار النبي ﷺ، وعاد إلى بلاده على أنه يقرر لابنه الملك ويتركه له بالكلية ويعود إلى مكة المعظمة ويقيم مجاوراً بها فأتاه أجله رحمه الله تعالى)[2].

---

(١) العمري ـ مسالك الأبصار ص ٧١ ـ ٧٣ ـ ٧٤.

(٢) توفي منسى موسى سنة ٧٣٣ هـ/ ١٣٣٢ م وترك وراءه أمبراطورية عظيمة اشتهرت باتساع رقعتها وثروتها وقوتها وأمنها ورخائها واستقرارها وازدهارها الاقتصادي والثقافي ما يعطي مثلاً قوياً لقدرة الأفارقة على التنظيم السياسي والاقتصادي.

وهناك الكثير من الأدلة على ما اكتسبته مالي في تلك الأيام وحاكمها العظيم =

انتهى ما حكاه العمري في المسالك عن أبي أمير الحاجب ص ٦٩ ـ ٧٠.

أثر حج منسي موسى في ازدهار الحركة العلمية والثقافية في غرب إفريقيا:

ومن آثار حجه أن ازدهرت الحركة العلمية والثقافية حيث استقدم السلطان منسى موسى إلى مملكته المترامية الأطراف كثيراً من العلماء والفقهاء والأدباء من جميع أنحاء العالم الإسلامي وخاصة من الحجاز ومصر وشمال إفريقيا.

فأحضر معه من الحجاز شاعر الأندلس المهندس المعماري أبا إسحاق إبراهيم الساحلي المعروف في بلاد الأندلس الطوجن وقد اتصل به موسى بمكة، وظل يتابعه حتى دخل خدمته، وكان أول عمل أوكله إليه بناء مسجد غاو والمسجد الجامع بتمبكتو كما شيد له قصراً في مدينة تمبكتو. وهو أول من أدخل الفن المعماري الأندلسي إلى مالي. وقد توفي بمدينة تمبكتو[1].

= (موسى) من الشهرة والعز والمجد أثناء حكمه، توجد (في خريطة العالم) التي رسمها راسموا الخرائط الأوروبيون حين كانوا للمرة الأولى يحاولون أولى محاولاتهم ليصوروا داخل إفريقيا. فمن أوائل المصادر التي أشارت إلى مالي وملكها موسى (خريطة العالم) التي رسمها أنجيلينود ولسرت الميورقي، وهي مؤرخة في سنة ١٣٣٩ م أي بعد سبع سنوات فقط من موت منسى موسى. فقد وضع في وسط الصحراء الغربية عرشاً عليه تمثال كساه بالثياب الملكية وعلى رأسه تاج من ذهب وذكر أنه ملك مالي. وبدأ راسموا الخرائط يثيرون التساؤلات عن منسى موسى. وفي الأطلس الذي رسم أيام شارب الخامس سنة ١٣٧٥ م أظهر في وسط الصحراء رجلاً ملثماً راكباً جملاً متجهاً إلى ملك جالس على عرش لابساً ملابس ملكية وتاجاً ممسكاً بالصولجان في إحدى يديه والصاجات الذهبية في اليد الأخرى، وهو يناولها إلى الراكب. وقد كتب تحت هذا الملك (منسى موسى) ملك الزنوج في غانة والذهب كثير في مملكته إلى حد أنه أصبح أغنى وأنبل ملك في العالم.

(١) العبر ج ٦ ص ٢٠٠ ورحلة ابن بطوطة ٦٩٢ ـ ٢٩٤.

ومن العلماء الذين استقدمهم معه من الحجاز: القاضي أبا العباس الكالي، والقاضي عبدالرحمن التميمي الذي سكن في مدينة تمبكتو فوجدها حافلة بالفقهاء السودانيين تفوقوا عليه في الفقه مما اضطره إلى السفر إلى فاس ليتتلمذ على فقهاء المالكية فيها ثم عاد إلى مدينة تمبكتو وأقام بها قاضياً ومعلماً حتى توفي فيها[1]. كما قدم معه إلى مالي عدد من تجار مصر، واستقدم من المغرب عدداً كبيراً من العلماء وبعضهم تولى إمامة المسجد الجامع الكبير في تمبكتو الذي بناه موسى.

واشترى كثيراً من الكتب في التفسير والحديث والفقه واللغة والأدب والثقافة وفي بعض العلوم التي ظهرت في مصر اشتراها من مصر والحجاز والمغرب أثناء حجه كما جلب عدداً كبيراً من الكتب من الأندلس[2]. وأصبحت في امبراطوريته الواسعة مدن ازدهرت واشتهرت بالعلم والثقافة الإسلامية وأصبحت مراكز علم وثقافة في أفريقيا الغربية بالإضافة إلى الثروة التجارية الهائلة التي اشتهرت بها تلك المدن. وأصبحت اللغة العربية هي لغة الثقافة والتعامل التجاري في أفريقيا الغربية كلها كما ذكر ذلك السعدي والقاضي محمود كعت والعمري والقلقشندي وغيرهم.

حج منسى سليمان بن أبي بكر شقيق منسى موسى سنة ٧٥٢ هـ/ ١٣٥١م وأثره في ازدهار العلم في غرب أفريقيا:

من أشهر ملوك مالي الذي حج بعد منسى موسى: منسى سلمان وقد زاره ابن بطوطة بعد حجه سنة **٧٥٣**هـ أثناء طوافه ببلاد السودان، وقد قام بعد حجه ـ كما ذكره العمري وغيره ـ بجلب العلماء والفقهاء

---

(١) تاريخ السودان ص ٥١.

(٢) تاريخ السودان ص ٥٧.

من مذهب الإمام مالك إلى بلاده وتفقه هو نفسه في الدين وكان يبني المساجد والجوامع في كل مكان نزل فيه. وذكر العمري في المسالك والسعدي في تاريخ السودان، أنه بنى المساجد والجوامع والمنارات، وأقام به الجمع والجماعات والأذان، وجلب العلماء والفقهاء من مذهب الإمام مالك إلى بلاده، وتفقه في الدين[1].

وقد بلغ من كثرة العلماء الذين استقدموا أن كونوا أحياء خاصة بهم في مدن مملكته مالي الواسعة وقراها، فقد قال ابن بطوطة الذي زار مالي سنة ٧٥٣ ـ ٧٥٤هـ: «وكنت كتبت قبل ذلك لجماعة البيضان، وكبيرهم محمد ابن الفقيه الجزولي من قبيلة جزولة وشمس الدين بن النقويش المصري... فوصلت إلى مدينة مالي حضرة ملك مالي... ووصلت إلى محلة البيضان».

وذكر أن البيض كان لهم حي خاص لسكناهم ومسجد خاص بهم في مدينة كوكو (غاو حالياً)، وأن إمامه ـ خلال رحلته ـ كان اسمه الفقيه محمد الفيلالي. وقال أيضاً: «قرية زاغري، وهي قرية يسكنها تجار السودان، ويسمون ونجراته، ويسكن معهم جماعة من البيضان يذهبون مذهب الإباضية من الخوارج. ويسمون صغنغو، والسنيون المالكيون من البيض يسمون عندهم (تورى)».

وهذا كله يظهر الأثر الذي أحدثه حج هؤلاء الملوك في السودان الغربي من ازدهار ثقافي عظيم لقيامهم أثناء رحلتهم تلك باستقدام العلماء والفقهاء وإنشاء مراكز علمية وثقافية في مدن السودان الغربي، وما زال دور تلك المراكز الحضاري الحقيقي لم يكشف النقاب عنه كاملاً حتى الآن.

وقد كانت شهرة الملك منسى موسى وموكب حجه العظيم الذي

---

(١) العمري ص ٥٩ ـ ٦٠ والقلقشندي ج ٥ ص ٢٩٧ وتاريخ السودان ص ٥٧.

بهر أوروبا حافزاً قوياً لدفع أوروبا على التفكير الجدي في معرفة قلب أفريقيا والوصول إليه حيث الذهب والغنى والثروات الهائلة وقد وضح هذا في خرائط العالم التي صدرت في أوروبا منذ القرن الرابع عشر الميلادي، وكان هذا التفكير وهذه المحاولة بجوانب عوامل أوروبية أخرى، هي التي انتهت بحركة الكشف الجغرافي وما أعقبها من حركة استعمارية كبرى في أفريقيا.

أول من حج من ملوك امبراطورية سنغاي الإسلامية:

كان أول ملك من ملوك سنغاي قام برحلة إلى الحج هو الحاج أسكيا محمد بن أبي بكر الذي اعتلى عرش امبراطورية سنغاي سنة **٨٩٨**هـ الموافق **١٤٩٢**م بعد موت سني على ملك سنغاي وقتل ابنه سنى بارو الذي تولى العرش بعد موت أبيه، ولكن أسكيا محمد الذي كان ضابطاً بارزاً من ضباط جيش سنغاي في أيام سنى على ثار بمجرد موت سني علي وتولى ابنه فاعتلى عرش سنغاي.

وبما أنه اعتلى عرش سنغاي بقوة السلاح ولم يكن من أبناء سلاطين سنغاي أسرع إلى الحج سنة **٩٠٢**[1] **١٤٩٧** م ليؤدي فريضة الحج. ولعله أراد أيضاً إضفاء صفة الشرعية على حكمه، وأخذ تفويض بحكم السودان الغربي من الخليفة العباس بالقاهرة، بعد أن ورثت القاهرة بغداد في مركزها الديني والسياسي والثقافي. وأضحت حامية بلاد الخلافة الإسلامية منذ تم إحياء الخلافة العباسية فيها سنة **٦٥٩** هـ/ **١٢٦١**م.

وقد حرص أسكيا محمد على أن يأخذ معه إلى الحج جمعاً

---

(١) انظر تاريخ الفتاش للقاضي محمود كعتب ص ١٦ وهو من العلماء الذين حجوا معه ومن القضاة المقربين إلى أسكيا. وانظر أيضاً تاريخ السودان للسعدي ص ١٥ ـ ١٦.

كبيراً من العلماء وأعيان مملكته وبعض رجال حكومته ليظهر بذلك أمام العامة في سنغاي في مظهر الملك الصالح القوي.

وكان أسكيا فعلاً يتحلى بصفات طيبة جعلته جديراً بالمركز الذي اغتصبه. إذ كان ذا كفاءة في التنظيم السياسي تفوق كفاءة سني علي. ميالاً إلى الدين والعلم ومحباً للعلماء ومحسناً إلى الفقراء تلك صفات لم تعرف يوماً في الحكام الذين كانوا قبله.

أما جملة من كان معه في رحلته تلك إلى الحج من الجنود والعبيد والدواب التي كانت تحمل الأمتعة والذهب، فقد كانت على غاية كبيرة من الضخامة التي وصل صداها جميع بلاد سنغاي. وفي كل بلد يمر به كان يستأذن في الدخول من أميرها، ثم ينفق بسخاء لم تعرف تلك البلدان مثله.

فقد ضم موكبه ألف وخمسمائة جندي: خمسمائة فارس وألف راجل. وحمل معه ثلاثمائة ألف قطعة من الذهب الخالص، أخذها من الكنوز التي تركها سني علي.

وقد أنفق أسكيا محمد في حجه كل هذا المبلغ وقسمه أثلاثاً فخصص ثلثه ـ مائة ألف ـ للمنشئات الخيرية في الأماكن المقدسة فاشترى منها عقارات وأراضي زراعية في المدينة وبيوتاً في مكة وأوقفها على الحجاج القادمين من السودان الغربي من مملكته سنغاي والمقيمين منهم في الحرمين[1]. وما زالت أوقاف المدينة قائمة إلى

---

(١) إذا أردت تفصيلاً دقيقاً لأوقاف أسكيا محمد في المدينة ومكة ونفقاته فيهما فانظر تاريخ الفتاش للقاضي محمود كعت الذي رافقه في حجه وشاهد كل ما علمه أسكيا في حجه، وأيضاً انظر تاريخ السودان للسعدي التنبكتي فإنه تكلم عن ذلك بالتفصيل ولا تزال أوقافه في المدينة قائمة إلى يومنا هذا وقد خصصت أخيراً لبعض الماليين بالمدينة القادمين من مناطق معينة من مالي ومن قبيلة معينة وأما أوقافه في مكة فقد دخلت في توسعات الحرم عبر العهود.

هذا اليوم. وكان أسكيا محمد قد أوقف هذه الأوقاف من بيوت وأراض ليأوي إليها حجيج بلاد السودان الغربي ولينفق من ريعها على المقيمين منهم لطلب العلم.

كما أنفق من هذا الثلث مبلغاً كبيراً كصدقات على فقراء مكة والمدينة.

وخصص الثلث الثاني ـ مائة ألف ـ لتكاليف سفره مع حاشيته وأما الثلث الثالث ـ مائة ألف ـ فقد أنفقها في شراء حاجات وهدايا من أسواق مكة والمدينة والقاهرة[1].

إذا أجرينا مقارنة بين ما أنفقه منسى موسى في حجه وما أنفقه أسكيا محمد نجد فرقاً كبيراً بينهما. فقد أنفق منسى موسى الذي حج قبل أسكيا بثمان وسبعين ومائة سنة ثلاثين ألف قطعة ذهب فقط، أي أن نفقات أسكيا محمد في حجه زادت عن نفقات منسى موسى بمقدار تسعين بالمائة، ومع ذلك ذكر المؤرخون ـ كما تقدم ـ في ذلك العهد أن سعر الذهب كان قد نزل بأسواق القاهرة والحرمين لكثرة ما أنفق منه فيها موسى بمقدار ستة بالمائة.

ومع أن ما أنفقه أسكيا محمد ملك سنغاي أكثر مما أنفقه منسى موسى ملك مالي بتسعين بالمائة، ورحلته أيضاً قد نظمت على نطاق يمكن مقارنته برحلة منسى موسى أو تفوقه مع ذلك كله لم يثر نفسه الانتباه في الشرق الأوسط وأوروبا. ولم تجذب انتباه أحد كثيراً كما حصل في موكب موسى ويرجع ذلك إلى الأسباب الآتية:

---

(١) انظر تاريخ الفتاش ص ١٦ وما بعدها وتاريخ السودان ص ٧٢ وللاطلاع على مدى الأثر الذي أحدثته كثرة النفقات التي كان ينفقها ملوك السودان الغربي ـ أفريقيا الغربية ـ في المشرق الإسلامي أثناء حجهم، وخاصة منسى موسى وأسكيا محمد منهم يراجع المصدران السابقان. وابن فضل الله العمري، وابن إياس والمقريزي بشكل خاص.

١ ـ أن أسكيا محمد أكثر من منسى موسى استقامة في الدين وأفقه منه لأحكام الشريعة الإسلامية لذلك كان إنفاقه معتدلاً خالياً من التبذير وكانت نفقاته في وجوه البر فقط.

٢ ـ إن أسكيا محمد أقل من منسى موسى اندفاعاً لفقهه بأحكام الدين.

٣ ـ قد يكون أهل المشرق الإسلامي قد اعتادوا ذلك من ملوك السودان الغربي فلم يعد ذلك يثيرهم لكثرة اعتيادهم له. وقد بلغ أسكيا محمد بنفقاته هذه ومن الأبهة التي أراد أن يظهر بها في المشرق كل أهدافه فاستقبل في القاهرة استقبالاً رسمياً حافلاً.

أما في مكة فقد قلده شريفها بردة وعمامة وسيفاً، ونظم على شرفه حفلة خاصة تسلم خلالها من آخر الأمراء العباسيين ـ الخليفة العباسي ـ لقب الخليفة الأول على بلاد السودان. وكان أسكيا محمد سأله هذا اللقب أثناء مقابلة له في الحجاز. وبذلك تم تتويجه من قبل الخليفة العباسي المتوكل خليفة له على السودان الغربي كله. فكان بذلك خليفة صحيحاً في الإسلام. وهكذا عاد أسكيا إلى عاصمة دولته (غاو) وقد حصل على جميع الاعتبارات الأدبية لاستمراره في الحكم ملكاً على سنغاي عن جدارة واستحقاق. وقد اكتملت له تلك الاعتبارات في أعين رعاياه.

فوائد حج أسكيا محمد بن أبي بكر وآثاره الديني والثقافي والسياسي في غرب أفريقيا:

استفاد أسكيا من رحلة حجه بفوائد دينية وعلمية كثيرة غيرت حياته السياسية.

من تلك الفوائد:

أولاً: أنه قد التقى بكبار العلماء في مصر والحجاز وأخذ عنهم السياسة الشرعية في الحكم.

ففي مصر التقى بالإمام جلال الدين السيوطي فأخذ عنه وقدم له نصائح وتعليمات وإرشادات دينية وسياسية أدت دوراً كبيراً في تطوير التعليم وازدهار الثقافة الإسلامية في السودان الغربي وتنظيم القضاء فيه وكان أسكيا لا يخرج عن تعليمات السيوطي وتوجيهاته[1].

وفي مكة والمدينة التقى بكثير من العلماء وأخذ عنهم توجيهات وإرشادات في الحكم ووجوب تطبيق الشريعة الإسلامية في كل كبيرة وصغيرة. كما أنه اطلع على سير الخلفاء والملوك والممالك وأنظمتها في المشرق الإسلامي.

ثانياً: أن حجه هذا نفع كثيراً الحجاج السودانيين من غرب أفريقيا ومن أقام منهم في الحرمين لطلب العلم أو بصفة دائمة حيث اشترى لهم أراضي وبيوتاً وأوقفها عليهم يأوون إليها وينفقون عليهم من ريعها وهذه الأوقاف قد بارك الله فيها وانتفع بها كثير منهم ولا تزال تلك الأوقاف قائمة في المدينة إلى هذا اليوم يستفيد منها كثير من الماليين المقيمين في المدينة.

ثالثاً: أنه بعد عودته من الحج سنة **٩٠٣** هـ **١٤٩٨** م بدأ بإصلاحات هامة قام بتطبيق الشريعة الإسلامية في جميع الأمور فأقام ملة الإسلام وأصلح أمور الناس، ولازم العلماء واستفتاهم فيما يلزمه من أمر الحل والعقد، وأمر بإطلاق سراح الذين سجنهم من قبله وحرر كل من ادعى الحرية ممن استرقهم (الملك سنى علي) ورد كل مال غصبه إلى أصحابه. ونصب في كل مدينة وفي كل بلدة تستحق قاضٍ قاضياً من كنت إلى شبردك[2].

---

(١) لمعرفة قوة تأثير الإمام السيوطي في أسكيا محمد يراجع تاريخ الفتاش للقاضي محمود كعت الذي كان حاضراً لقاء أسكيا بالسيوطي وإرشاداته له. وتاريخ السودان للسعدي هما من أهم المصادر في حياة أسكيا ودولته.

(٢) انظر لما تقدم تاريخ الفتاش ص **٥٩** وما بعدها. وتاريخ السودان ص **٧٢** وما بعدها.

وعين الشيخ القاضي أبا البركات محمود بن عمر شيخاً للإسلام وقاضي القضاة في مدينة تنبكتو وجعل له السلطة العليا في أمور الدين.

بنى كثيراً من المراكز الإسلامية والمساجد ومعاهد العلم كمعهد سنكوري الديني وغيره في تنبكتو وغاو وجنى وغيرها من مدن الأمبراطورية الواسعة، واشترى كثيراً من كتب العلم في مصر والحجاز وشمال أفريقيا وعزز بها المعاهد العلمية ومراكز الثقافة الإسلامية. واهتم اهتماماً شديداً بنشر الثقافة الإسلامية واللغة العربية والعلوم والآداب. وأغدق على العلماء وطلبة العلم وشجعهم على العلم، وحرم على النساء الاختلاط والعرى، واهتم بالآداب العامة[1].

رابعاً: أفاد الحاج أسكيا محمد بن أبي بكر ما شاهده أثناء حجه وإقامته في المشرق ـ من أنظمة متقدمة في الحكم والإدارة، فنظم الجهاز الإداري لأمبراطوريته المترامية الأطراف. فأنشأ لأول مرة ما نسميه الهيئة التشريعية والتنفيذية والقضائية، لتحقيق الأمن والعدل والمساواة بين رعاياه[2].

خامساً: في مجال الدعوة ونشر الإسلام والجهاد في سبيل الله. اهتم أسكيا بعد عودته من الحج بالجيش فأنشأ جيشاً نظامياً مدرباً أحسن تدريب على أحدث أسلحة زمانه ومكانه أعاد به إخضاع الممالك والأقاليم التي تمردت على أمبراطورية سنغاي الإسلامية قبل حكمه، ولما أنس في جيشه القوة وفي مملكته الاستقرار بدأ بالدعوة إلى الإسلام والجهاد. فأرسل الشيخ العالم (مور صالح) إلى سلطان قبائل الموسى الوثنية، ليدعوه إلى الإسلام، فأبى سلطان الموسى[3]

---

(١) انظر تاريخ الفتاش ٥٩ وما بعدها وتاريخ السودان ص ٧٥ ـ ٧٦.

(٢) انظر المصدرين السابقين.

(٣) ذكر السعدي أن الشيخ مور صالح لما بلغ ملك الموشى دعوة أسكيا له إلى الإسلام قال له: حتى أشاور أبائي في القبور فذهب إلى قبورهم فسجد للشيطان فظهر له شيخ فقال له لا تقبل هذا الدين أبداً وابق على دين أبائك وأجدادك حتى تفنوهم أو يفنوكم. ص ٧٤.

فزحف إليه الحاج أسكيا محمد على رأس جيش كبير وحاربهم فانتصر عليهم وقتل رجالهم وخرب أرضهم وديارهم الوثنية في معركة ضارية تسمى معركة (نعسر) وذلك في سنة ٩٠٤هـ/١٤٩٧ ـ ١٤٩٨م فأدخل الكثير منهم في الإسلام، وعاد إلى عاصمته (غاو) بكثير من السبي الذين خصص لهم شارعاً خاصاً لسكناهم في غاو بات يعرف بهم[١].

وفي سنة ١٤٩٨ ـ ١٤٩٩ م أرسل جيشاً إلى إقليم باغن بقيادة فاري عثمان فأخضعه لسيادة سنغاي سنة ٩٠٥ هـ وضم مقاطعة باجانو إلى مملكة سنغاي فاتسعت ناحية الغرب إلى المحيط وفي سنة ١٤٩٩ ـ ١٥٠٠م/٩٠٦هـ اتجه أسكيا محمد بجيشه القوي نحو الشرق إلى منطقة أيورو حيث كان لا يزال يعتصم بها سنى بارو مع أنصاره الذين يدعون (زابرما) فانتصر عليهم، وثبت حكم أسكيا على تلك المنطقة التي كانت في أيام سنى على تابعه لمملكة سنغاي، ولكن أيام اعتلاء أسكيا عرش سنغاي اعتصم بها سني بارو مع أنصاره وانقطع حكم أسكيا عنها. ولم يجد أسكيا مقاومة تذكر في استردادها، وفي أثناء استيلائه عليها كان معظم جيش سنغاي مشتبكاً في الغرب مع بقايا مملكة مالي وقد تمكن بين سنتي ١٥٠٦ ـ ١٥١٢ م من ضم كل بلاد مالي القديمة إلى مملكة سنغاي، فبلغت حدودها مشارف المحيط.

وفي سنة ٩٠٦ هـ/١٥٠٠م هاجم (تلظ) في إقليم (أير) موطن قبائل الطوارق، وضم إلى امبراطوريته منطقة ككك التي لم تكن خضعت لها من قبل. وأخضع بذلك قبائل الطوارق التي كانت قد تمردت على سنغاي قبيل حكم أسكيا محمد وكانت تلك المناطق تابعة لأمبراطورية سنغاي في عهد سني علي[٢].

---

(١) السبايا من غزو أسكيا لبلاد الموشى أسكنوا في شارع خاص بهم، كما أسكن القينيين والقينيات الكثيرات من غزوة أرض باغن في حارة خاصة بهم في غاو سميت حارة (مابي) ص ١٠٢ السعدي.

(٢) انظر تاريخ الفتاش وتاريخ السودان كما كانت بلاد الهوسا تابعة للسنغاي في عهده مثل كانو، وكاشينا، وجوبر، وزنفرة وزاريا وغيرها من إمارات هوسا.

كان سني علي قبل أسكيا محمد قد أخضع أقاليم مالي لسلطانه واستولى على عاصمة مالي وفرض على سلطانها إتاوة وأقره حاكماً عليها من قبله حوالي سنة ٨٨٦ هـ/ ١٤٨١ م وأصبح سلطان مالي يدعى حاكم مالي من قبل ملك السنغاي[١] ولكن حاكم مالي تمرد على سنغاي ولجأ إلى مدينة (زلن) بأعالي سنغال وكان أسكيا قد استفتى الإمام المغيلي في حكم حرب الأمراء الذين يدعون الإسلام ولكنهم لا يطبقونه بل ويؤمنون بالطواغيت ويتحاكمون إليها. فأفتاه بوجوب جهادهم حتى يعود إلى تطبيق أحكام الشريعة ويتحاكمون إليها.

أرسل أسكيا محمد أخاه عمر كمزاغ على رأس جيش إلى مدينة (زلن) بأعالي نهر السنغال، والتي اتخذها (منسي مالي) حاكم إقليم مالي عاصمة له ـ بعد أن خرب (سن علي) عاصمته القديمة (مالي أو بنبى) وكان على حراستها قائده (قام فتى قلي)، وكان شجاعاً باسلاً، فرد جيش سنغاي سنة ٩٠٧ هـ/ ١٥٠١ م[٢] فلما بلغ أسكيا الحاج محمد نبأ هزيمة جيش أخيه سار على رأس جيش ضخم، ونزل به في بلدة (تنفرن) بالقرب من مدينة (زلن) جهة المشرق، ثم التقى بقائد سلطان مالي (قام فتى قلي) ودارت بين الجيشين معركة رهيبة، انتصر على أثرها (أسكيا محمد)، وفر سلطان مالي وقائده من المدينة واستولى أسكيا على المدينة ووقع أهلها في الأسر، وتزوج فيها بامرأة تدعى داب الونكرية، التي أنجبت له ابنه إسماعيل، وبقي أسكيا الحاج محمد بن أبي بكر بعض الوقت بمدينة (زلن) يصلح من أمرها ويدير شئون أهلها، بما يحقق لهم العدل والمساواة، ويحقق أيضاً سيادة امبراطورية سنغاي عليها، ثم عاد إلى عاصمة امبراطوريته الواسعة (غاو)[٣].

---

(١) تاريخ الفتاش ص ٤٦ ـ ٤٧.

(٢) تاريخ السودان ص ٧٥.

(٣) تاريخ الفتاس ص ٧٠ وتاريخ السودان ص ٧٥.

ولكن سلطان مالي خلع طاعته للمرة الثانية فاضطر أسكيا إلى غزو مالي مرة أخرى في مكان يسمى (كلنبموت)[١] وأرسل أسكيا محمد أخاه (كرمن فاري عمر) على رأس جيش إلى قائد سلطان مالي (قام فتى قلي) فحاربه وانتصر عليه وقتله سنة **٩٢٤هـ**[٢] وبقتله استقر حكم سنغاي على مالي وانتهت المقاومة، وخضع جميع ممتلكات مالي لأمبراطورية سنغاي وبسطت نفوذها عليها.

وفي سنة **٩١٨ هـ/ ١٥١٢م** ادعى النبوة (سلتى تينض) سلطان قبائل (جلف) التي كانت تقطن أقاليم فوتا من أرض مالي - وهاجم إقليم (كياك أو قياك) من ممتلكات سنغاي فسار إليه (أسكيا) على رأس جيش التقى به في (زار) وحاربه وانتصر عليه وقتله.

اتجه أسكيا الحاج محمد بن أبي بكر ملك سنغاي وسلطانها إلى الشرق من مملكته، فأخضع إمارات الهوسا وهي: جوبر وكانو وكاتسينا وزنفرة وزاريا، واستولى على إمارة (كاشنة) سنة **٩١٩ هـ/ ١٥١٣م** وأضحت بلاد هوسا كلها من ممتلكات امبراطورية سنغاي[٣].

وأصبحت أمبراطورية أسكيا محمد بن أبي بكر مترامية الأطراف، تمتد من المحيط الأطلسي في الغرب إلى نهاية بلاد هوسا في الشرق. ومن إقليم فولتا العليا (بلاد قبائل الموسى) (بركينا فاسو) حالياً في الجنوب إلى مناطق الطوارق في أير وككك وتفازة في الصحراء الكبرى شمالاً. وفاقت مساحتها مساحة امبراطورية مالي الإسلامية في أوج ازدهارها، حيث سيطرت على السودان الغربي كله (إفريقيا الغربية حالياً) بدولها القائمة فطوعت الجميع بالسيف ولكن أسكيا الحاج

---

(١) انظر المصدرين السابقين.

(٢) تاريخ السودان ص ٧٧ وذكر صاحب تاريخ الفتاش ص ٧٦ أن كنفار عمر كمزاغ هو الذي حارب تبيض وقتله دون علم أخيه أسكيا محمد.

(٣) تاريخ الفتاش ص ٧٧ وتاريخ السودان ص ٧٨.

محمد حقق لرعاياه جميعاً الأمن والاستقرار والرخاء والعدل والمساواة، ودأب على مصالح رعاياه[1].

نهاية حكم الحاج أسكيا محمد الملك العادل

ظل أسكيا الحاج محمد يحكم أمبراطورية سنغاي الإسلامية من سنة ٨٩٨ هـ/ ١٤٩٢م[2] حتى عزله ابنه موسى يوم عيد الأضحى سنة ١٥٢٨م وذكر صاحب الفتاش أنه عزل سنة ٩٣٥هـ.

بلغت سنغاي في أيامه الذروة في القوة والعلم والرخاء لم تزد عليها بعده وأصبحت أكبر أمبراطورية إسلامية في غربي أفريقيا على الإطلاق، سواء في المساحة والسكان أو في التنظيم والحضارة والازدهار العلمي والثقافي والاقتصادي. وانتشر الأمن والرخاء في ربوعها بشكل لم يسبق له نظير في تاريخ غربي أفريقيا. ومنذ سنة ١٥١٧ كان الحاج محمد أسكيا قد بلغ من الكبر عتياً فتوقفت فتوحاته. ولكنه بقي يراقب مملكته الواسعة في صبر وتأن. وفي ١٥١٨ م أصيب بمرض في عينيه أدى إلى ضعف بصره، وكان له مستشار مخلص ناصح أمين يعوضه فقد البصر حتى إنه لم يفطن لذلك معظم رجاله، وهو (علي فولن).

وفي تلك الفترة كان مساعدوه الأولون ورفقاؤه منذ البداية قد شاخوا أيضاً، فتوقف الجميع عند ذلك الحد عن الإنجازات. وكان الجيل الجديد في هذا الوقت ومعظمهم من أولاده الذين ذكر المؤرخون بأنهم يزيدون على مائة ولد، قد بلغ أكثرهم سن الرشد

---

(١) انظر المصدرين السابقين.

(٢) كان عمره سنة ١٤٩٣ م خمسين سنة، وعمره سنة ١٥١٧ م أربع وسبعون سنة أما في سنة ١٥٢٨ م وهي سنة تنازله كان عمره اثنين وثمانين سنة. وتوفي في سنة ١٥٣٨ م في أيام أسكيا محمد الثاني ابنه وبداية عهد أسكيا إسماعيل ابنه أيضاً عن عمر يناهز ٩٧ سنة.

الواحد تلو الآخر.

وكانت تحدوهم جميعاً روح الوصول إلى الحكم بكل الطرق والممكنة وكانت تلتف حول كل واحد منهم جماعة من الأنصار والطامحين لفرص المستقبل في الوظيف السامي والحكم.

وهكذا بدأ داء التنافس بين أولاد الحاج أسكيا محمد وهو حي. وربما كان لذلك محتاراً في كيفية الوصول إلى التمكين للاستقرار بعده في سنغاي، ولذا فقد ظل لا يعهد بالسلطة في أي منصب لأحد من أبنائه إلا بعد أن يختبره ويأنس فيه الحنكة، دون النظر للسن أو لأي اعتبار آخر.

وبهذا الاعتبار فإنه عندما توفي أخوه ونائبه في غورما (عمر كمزاغ) في سنة **١٥١٩** م عهد بتلك الولاية لأخيه الصغير (يحيى) وقد أثار ذلك حفيظة ابنه (موسى) الذي كان قد رافقه قبل ذلك، إلى الحج. وكان يطمح إلى الحكم بعده[١]. وقد بدأ موسى منذ ذلك الحين يسعى للوصول إلى الحكم. ويعمل لاحتلال مكانة أبيه بالقوة. ولما وجد من يتآمر معه ويساعده، فقد توصل سنة **١٥٢٧** م إلى إجبار (علي فلن) المستشار الأول لوالده أسكيا محمد والمخلص الأمين له منذ أيام الصبا. على مغادرة القصر[٢]. وفي سنة **١٥٢٨**م أي السنة التالية لمغادرة علي فلن قصر الحكم، دخل موسى القصر بالقوة مع جماعة من أنصاره وأجبر أباه على التنازل عن الحكم له، فما كان من والده إلا تنفيذ رغبة ابنه[٣].

---

(١) انظر تاريخ الفتاش ص ١٦ وما بعدها لمعرفة من كان معه في حجه.
وانظر أيضاً تاريخ السودان ومملكة سنغاي في عهد الأسيقيين ص ٤٠/ ٤١ لعبد القادر زبادية.

(٢) كان علي فلن عبداً لأسكيا محمد، ولكنه لإخلاصه له أصبح من أمناء سره الأقربين ومستشار أمين له. وقد رافقه في جميع ما قام به أسكيا من أعمال وحروب. انظر الفتاش وتاريخ السودان.

(٣) انظر تاريخ الفتاش ص ٧٨.

وتوفي أسكيا محمد سنة ١٥٣٧ م أو في سنة ١٥٣٨م. وانتهى بذلك حياة وحكم أكبر وأعظم ملك حكم السودان الغربي. ويدين له شعبه بتعليمه إياه الحكومة المنظمة التي بها ضمن النجاح الذي حققه أكبر مما يدين له بهذه الأمبراطورية الكبيرة التي أعطاها إياهم.

وشهد ليو الإفريقي (حسن الوزان) لأسكيا محمد بحسن السياسة والنظام الراقي حين زار السودان الغربي تحت حكم أسكيا العظيم (كما وصفه) سنة ١٥١٠ م في بعثة يرأسها عمه أرسله إلى أمبراطورية سنغاي شريف فاس محمد القائم مؤسس دولة السعديين.

وقد كانت كتابات ليو الإفريقي عن سنغاي ثمينة وهامة إلى حد كبير لأنها أظهرت السودان الغربي عقب وصول دولة سنغاي إلى قمة مجدها الاقتصادي والحضاري والثقافي عن طريق فتوحات أسكيا وحكمه العادل، فكان بذلك قادراً على أن يضيف إلى كتاباته ذات القيمة الجغرافية الكبيرة والعلمية صورة لأعظم النظم السياسية التي حققها سنغاي تحت حكم آل أسكيا، ويصف ليو أسكيا بكثرة الإنفاق على العلم والعلماء فيقول: إن الملك ينفق بسخاء على عدد كبير من الأطباء والقضاة ورجال الدين والفقهاء الآخرين، ويحملون إلى هناك مخطوطات مختلفة من الكتب المكتوبة في بلاد بربر.

وهي تباع بثمن أغلى من أي نوع آخر من التجارة، ويصف مدينة تمبكتو وهي في مجدها العلمي والثقافي في وقت كان أسكيا وحاشيته فيها. كما وصف مدينة غاو وعاصمة سنغاي بالحضارة والعظمة وكثرة الخيرات وبين أنها أكثر مدن السودان سكاناً وحضارة وكثرة الخيرات.

هذا كله في عهد أسكيا محمد رحمه الله تعالى وهكذا كان أثر حجه في السودان الغربي بعد عودته من مكة ومصر. وأسكيا محمد

هو أعظم من حج من ملوك السودان الغربي من حيث إنفاقه في الحرمين ومن حيث قيامه بتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية في السودان الغربي ونشر عقيدة السلف فيه وإنشاء المعاهد والمراكز الإسلامية وتشجيع العلم والعلماء. وقد حج بعده من ملوك السنغاي محمد الثالث بن أسكيا داود الذي تولى عرش سنغاي من **١٥٨٢** ـ **١٥٨٦**م ولكن حجه لم يحدث أي أثر يذكر.

obeikandl.com